نشأة المسرح الاغريقي

أو العناصر التمثيلية الاولى عند الاغريق قبل القرن الخامس ق . م.

بقلم الدكتور علي عبد الواحد وافي (١)

لم يصل التمثيل عند الاغريق الى درجة النضوج والكمال التي بلغها في العصر الاتيكي (٥٠٠ـــ٣٠٠ ق. م.) الا بعد ان قضى عهد طفولته الاولى في العصور السابقة وفي حضانة الدين اليوناني الذي تمخض عنه ، وتعهده حتى نما وترعرع ، وأبى الا ان يلازمه ملازمة الام الرءوم في كل اطوار حياته . فقد جرت عادة الاغريق ، منذ اقدم عصورهم ، ان يقيموا حفلات دينية لآلهتهم يحرصون فيها كل الحرص على اظهار تأثرهم بما ملأ حياة هذه الآلهة من خطوب، فيفرحون لما نالهم من نعيم ويحزنون لما اصابهم من شقاء . وأمثل طريق تخيلوها لاظهار ما يسرهم او يحزنهم من حياة هذه الآلهة وما عرض لهم فيها انما هي محاكاتهم اياهم محاكاة مصحوبة بأغنيات تروي قصصهم وتفصل جليل اعمالهم وحقيرها . وبذلك تحقق قبل العصر الاتيكي، بفضل هذه الاعياد الدينية عنصران كبيران من عناصر التمثيل : المحاكاة وإثارة العاطفة

اشرب اليونان في قلوبهم حب هذه الاعياد ووجهوا نحوها أكبر قسط من عنايتهم ، وخاصة في المدن المقدسة حيث مقر كبار الآلهة وشهيري المعابد كقريط وديلوس ودلف وما اليها من الاماكن التي حبتها الاساطير بطابع ديني رفع من مكانتها وميزها بين سائر بلاد الاغريق

فحفلات دلف مثلا ، كما وصفها لنا فلوطرخس ، كانت تشتمل على حلقات تمثيلية طويلة متعددة الفصول قريبة الشبه بالتمثيل التراجيدي[٢] ، لولا ما كان يعوز فصولها من التناسق وإحكام ربطها بعضها ببعض . كانت الاساطير تحدث اليونان مثلا بأن « أبلون » (إله الوحي ، والطب ، والموسيقى ، والماشية ، والنهار والشمس) لما وصل الى دلف قتل تنينا بريا[٣] رميا بالسهام ، وبعد ان تلوثت يداه بهذه الجريمة ذهب الى وادي « تمبي » ليتطهر من خطيئته ، ثم رجع الى دلف . . . . الى آخر ما جاء في هذه الخرافة . فكانوا ينتهزون فرصة حلول عيد « البيتريون » الذي كانوا يقيمونه لأبلون فيمثلون معركته مع الحية والحوادث التي نجمت عنها . وفي العيد المسمى « الهرواس » الذي كانوا يقيمونه « لسيميلية »

---

(١) ليسانسيه ودكتوراه في الآداب من جامعة باريس ، استاذ التربية بدار العلوم العليا والاخلاق بقسم التخصص بالازهر ، وتاريخ الادب المسرحي بقاعة المحاضرات التمثيلية (٢) الرواية الفاجعة ، الحزينة ، المأساة (٣) Python وتعرف هذه الحية في السودان بالاصلة عن معجم الحيوان

محبوبة المشتري (الإله جوبيتر او زفس، ابو الآلهة ورئيسهم ، إله الارض والسماء والفصول والصواعق والسحاب والرعد . . .) وأم الإله « بخوس» ، كانوا يمثلون ما تتعه عليهم الخرافات من الامور المتعلقة بهيام المشتري بسيلية وعوتها محروقة وبذره جنينها بالخوس .

وكان ثمة ، غير هذين العيدين ، أعياد كثيرة يضيق بنا المقام عن حصرها بعضها محلي قاصر على اهل مدينة خاصة ، وبعضها عمومي تشترك فيه مقاطعة أو أكثر من المقاطعات الاغريقية

وقد شاطر الآلهة في هذا التقديس كثير من ابطال اليونان الاول الذين جاء ذكرهم في قصائد هوميروس والذين اكتسبوا على تقادم الزمن صفات قربتهم من الآلهة دون ان تفصلهم فصلاً تاماً عن البشر . فكانت كل مدينة ينتسب اليها بطل من هؤلاء الابطال تقيم له أعياداً شبيهة بالحفلات التي كانت تقام للآلهة انفسهم ، تمثل فيها حياته ويتغنى فيها بأقاصيص حروبه وانتصاراته واعماله الجليلة وما كان له من فضل على المقاطعة المحتفلة بذكراه . وقد كان لهذه الاعياد الوطنية في نشأة التمثيل أثر لا يقل عن أثر الاعياد الدينية

غير ان إلهين اثنين قد أثرت أعيادهما في نشأة المسرح الاغريقي تأثيراً خاصاً لما كانت تشتمل عليه هذه الاعياد من محاكاتهما في حياتهما الحافلة بكثير من الحوادث المحزنة والسارة ولما كانت تثيره هذه المحاكاة في نفس الشعب من مختلف الانفعالات والعواطف من هيام ووجد وحزن وسرور وقسوة وحنان وابتهاج الظفر ومرارة الاخفاق . . . وما الى ذلك من حركات الوجدان التي تعتبر إثارتها كما اشرنا الى ذلك فيما سبق ، عنصراً كبيراً من عناصر التمثيل ، وهذان الالهان هما : « دميتير » Démeter و « ديونيزوس » Dionysus

١ — أما « دميتير» فهي إلهة الارض وقوى الطبيعة المنتجة ، تروي الاساطير أن « هاديس » (ملك جهنم وإله الموت) ؛ قد خطف بنتها « كورى » فأثار ذلك شجونها ؛ وآلت ألا يهدأ لها مضجع أو تعثر عليها ، فطفقت تبحث عنها مبلبلة الخاطر ، فارغة الفؤاد ، تتقاذفها الطرق ، وتتبادلها الاصقاع ، كأنما موكلة بفضاء الارض تذرعه ، حتى ألقت عصاها بمدينة « اليزيس » الواقعة في الشمال الغربي من أثينا ، حيث استقبلها ملكها « تريبتوليم » استقبالاً باهراً ، حفظته له ، وكافأته عليه بأن علمته فن الزراعة . . . إلى آخر ما جاء في هذه الاسطورة . فكانت تمثل في أعيادها كل هذه الحلقات الالهية التي تألفت منها سلسلة حياتها ، وتسرد قصصها في أشعار غنائية لا يسع سامعها إلا مشاطرة هذه الام البائسة آلامها ، ومقاسمتها قلقها وبلبلة خاطرها في أثناء بحثها الهائج العميق ، والحقد على ذلك الإله القاسي الذي حرمها فلذة كبدها وصيرها إلى تلك الحال ، والسرور عند ما يظهر في ظلمات حياتها وميض أمنية أو بارقة أمل . هذا إلى أن من ذلك التمثيل ومن هذه الاغنيات كانت تظهر صور مختلفة للطبيعة وما ينالها في فصول السنة على اختلافها من نضرة وبهجة حيناً ومن ذوى

وذبول حيناً آخر . وبذلك كانت تمزج في نفوس الرائين والسامعين عاطفة الاجلال لنواميس الطبيعة ونظمها والاذعان لمانشاؤه مع انفعالات الاضطراب والاسى ؛ — والهدوء والسرور . . . التي تثيرها قصة ديمتير نفسها . ومن خلال هذا كله تنبثق معان فلسفية وتعاليم دينية تتعلق بالانسان ومصيره وضعفه أمام قوة القضاء

٢ — ولكن هذه العبادة ، على ما فيها من جلال وجمال وفضل على التمثيل ، لم تبلغ الشأو الذي بلغته في هذه النواحي عبادة ديونيزوس .

تروي الاساطير أن ديونيزوس (إله الخمر) ، قد ماتت امه سيميلية ولما تتم مدة حمله ، بصاعقة أرسلها عليها حبيبها المشتري (جوبيتر او زفس) حين طلبت إليه أن يريها كل مظاهر قدرته ؛ وحينئذ انتقل الجنين ديونيزوس إلى فخذ والده حيث قضى بقية مدة الحمل ؛ فوضع بجبل « نيزا » حيث تولته الآلهة المسماة العذارى (Nympha) ؛ ثم تعلم فن زراعة الكرم من الإله «سيلين» وينسب اليه ؛ فضلاً عن هذا ؛ عدة امور لاتقل صفاتها التمثيلية عن حوادث حمله وولادته وتربيته الاولى ، منها انهُ شخص الى الهند على رأس كتيبة حربية كللت أعمالها بالنصر ، ومنها انهُ اشترك مع والده في الحروب التي أعلنتها آلهة الجمع الاولمبي على الشياطين وانه قد ابدى في هذه الحروب شجاعة نادرة جعلت رئيس الجمع الاولمبي يعجب به ويهنئه ويعتمد عليه ؛ ومنها انه قد اختطفه يوماً القرصان (لصوص البحر) ولكنه انتقم لنفسه منهم شر انتقام ، ومنها انه أحب « أريادن» بنت « مينوس » (أحد ملوك قريط الخرافيين) وأشربت حبه في قلبها ، ومنها انه كان لا يسير إلا مع رفاق فرحين يتألفون غالباً من «الساتير» (وهم في الطبقة الدنيا من طبقات الآلهة لهم قرنان صغيران وسوق كسوق المعز ووجه كوجه الانسان وقامة كقامته ، ويحملون بأيديهم غالباً مزماراً وتارة كأساً وآونة عصا «السيلين») ومنها ان الملك «ليكورغوس» قد طرده هو ورفاقه احتقاراً لهم وظناً منه انهم لا حول لهم ولا قوة ، ولكنه قد طاش سهمه فقد اذاقه ديونيزوس كؤوس العذاب جزاء له على فعلته الشنيعة (وهذه الاسطورة الاخيرة كانت منتشرة على الاخص بين اهل تراقية) . . . . وغير ذلك من الامور التي يضيق المقام عن حصرها . فاذا كان لأعياد ديمتير ما رأيت من الاثر في نشأة المسرح الاغريقي ، مع ان القصة التي كانت يتغنى بها في هذه الاعياد لاتشتمل إلاّ على عنصر واحد أو عنصرين : حزن الام على فقد بنتها وبلبلة خاطرها اثناء بحثها عنها ، فماذا عسى ان يكون أثر اعياد ديونيزوس وقد اشتملت قصته على هذه المفاجآت العديدة التي تقدم ذكر بعضها والتي من شأنها ألا تدع قوة من القوى العاقلة حتى تستحثها ولا مظهر من مظاهر الوجدان حتى تثيره ؟ !

يذهب اليوناني يوم عيد ديونيزوس ، يوم عيد الهه الذي يضمر له الحب كله ويعرف له يأديه البيضاء على خصب حقله ونتاج كرمه ، يذهب الى المكان المعد لاقامة الاحتفال وقد

ملكت عليه عاطفته الدينية كل مشاعره وجعلته قابلاً لان يتأثر بأدنى مؤثر ويثور لاقل الاشياء إثارة ويطير لبه لاضعف صوت موسيقيّ ؛ فيسمع الجوقة تغني قصة الاله المحتفل به ، بادئة بحوادث حمله وما أصاب والدته المسكينة التي راحت ضحية حمقها وشكها في قدرة المشتري ، فيتملكه حزن عميق لا يتقدمه إلاّ عاطفة اشد وطأ : عاطفة القلق على مصير ذلك الجنين الذي صعقت أمه ولما تتم مدة حمله . وبينا هو في ذلك الاضطراب النفسيّ إذ يقرع آذانه خبر انتقال ديونيزوس من بطن امه الى فخذ ابيه فتهدأ ثائرته ويشمله فرح مؤقت لا يلبث ان يختفي ليحل محله ازعاج آخر عند ما يصل المغنون في قصصهم الى حادثة خروجه ، بعد ان تمت مدة حمله ، من هذا الفخذ الوثير ، الى قمة ذلك الجبل الموحش ، حيث لا أم تتعهده ، ولا حاضنة تقوم بشئونه ، ولا غذاء يقيم أوده ؛ ثم تبرق اسارير وجهه فرحاً عند ما يعلم ان الله قد قيض له « المذاري » واستبدله أمهات بأم واحدة . وهكذا دواليك يظل قلبه ميداناً لشتى العواطف حتى يؤذن مؤذن ان قد انقضى العيد

هذا الى ان تلك الاغنيات كانت تتعرض لقوانين الطبيعة الخاضعة لها الكائنات الحية ، ولا سيما ما يتعلق منها باعمال الاله ديونيزوس ، فتصف تتابع الفصول وآثارها على اشجار الكرم التي يميتها الشتاء ، فتيبس جذوعها وتذوي ثمرتها وتتساقط اوراقها ؛ ثم يبعثها الربيع فتسري فيها عناصر الحياة قليلاً قليلاً حتى تعود اليها نضرتها الاولى كاملة غير منقوصة . وبذلك كان يمتزج في نفوس السامعين والرائين نوعان من العواطف: عواطف الحزن والسرور ، والاضطراب والهدوء ، والخوف والطمأنينة . . . . وعواطف الاجلال لسنن الطبيعة وإكبار أعمالها والاعتراف لها بالجميل

ومن هذه الاغنيات أيضاً كانت تظهر معان فلسفية دقيقة تمثل عمل الانسان وجهله اذ يحسب احياناً شقوة ما يكفل له الهناءة ، ويسعى تارة الى حتفه بظلفه فيجلب على نفسه الوبال بالوسائل التي يخال انها تحقق له السعادة . فلم يكن اثر هذه الاعياد قاصراً على الوجدان والعاطفة بل كان يتعداها الى كثير من مظاهر التفكير

وكان يساعد على إظهار كل هذه العواطف والمعاني في نفوس المغنين وسامعيهم ما كانوا يلتجئون إليه من وسائل الاثارة الصناعية مستفيدين مما كان يبيحه الدين الاغريقي في اعياد ديونيزوس خاصة من الاغراق في المأكل والمشرب والاستمتاع بلذة الحياة المادية وكانوا يأكلون حتى التخمة ويشربون حتى الثمل وتبيد بهم النشوة فيرقصون

وقصارى القول : إن عبادة ديونيزوس كانت أضخم العبادات ثروة في العناصر التمثيلية ، فلا غرو ان ينسب اليها أكبر قسط من الفضل في تمهيد الطريق أمام المسرح الاغريقي واعداد النفوس لتذوقه ، وأن تعتبر أجل فاتحة لتراجيديات العصر الاتيكي